الأفيون والعصا: من الرواية إلى الفيلم

د. كريمة ناوي– كاتبة أكاديمية– الجزائر

arijalgeria2012@yahoo.com

المستخلص

تقوم هذه الدراسة على محاولة البحث في العلاقة بين فنين ،يقوم أحدهما على الكلمة ممثلا في الرواية بينما يقوم الثاني على الصورة ممثلا في السينما.

وهذه الدراسة اقتربت من الأدب الجزائري في علاقته بفن السينما من خلال رواية الأفيون والعصا للكاتب مولود معمري التي اقتبست للسينما.ومن خلال هذا العرض للرواية والفيلم انطلاقا من بنيتيهما المختلفتين، كان التركيز على الرواية كنص مكتوب والتغيرات التي حدثت عليها بعد تحويلها الى نص مرئي. كما كان التركيز على أهمية الاقتباس للسينما والذي لا يعني النقل الحرفي للرواية لتكون فيلما بقدر ما يعني أفلمة النص القابل لذلك لأنه ليست كل النصوص الأدبية قابلة لتكون أفلاما.

Abstract

This study is based on trying to find the relationship between the technicians, the one on the floor, represented in the novel, while the second is based on the image represented in cinema.

This study approached the literature Algerian in relation to the art of cinema through a novel opium and stick to the writer Mouloud Mammeri which quoted the cinema. the focus was on the novel as text written and the changes that have taken place them after conversion to the text invisible. As The focus was on the importance of the quotation of cinema that does not mean the literal transfer of the novel to be a film.

تمهيد

لقد شكلت الجزائر وعبر تاريخها الطويل، رصيدا حضاريا وثقافيا استطاعت من خلاله تقديم نفسها للعالم كبلد لا يقل أهمية عن بقية البلدان من حيث الإبداع في مختلف الفنون.فقد قدمت للعالم كتابا تجاوزت شهرتهم الآفاق..كتاب أبدعوا باللغة الفرنسية وآخرون كانت العربية لغة إبداعهم.كما قدمت الجزائر مبدعون في مجالات فنية أخرى منها الرسم والموسيقى والسينما.

إن السينما كفن حديث لم يكن بعيدا عن الجزائر فقد عرفته منذ زمن بعيد،إذ تعود علاقة الجزائر بهذا الفن إلى القرن 19.فقد عرف الأوربيون الموجودون بالجزائر السينما بعد عشر سنوات من ميلادها على يد الأخوين- Lumière لوميير-" في الحقيقة، أنه في الأسبوع الأول من سنة 1896 وبعد أيام فقط من أول عرض سينمائي عالمي بباريس للأخوين لوميير التحق الفرنسي الجزائري فيليكس ميسغيش الذي أنهى خدمته العسكرية a' Arles بليون ليعمل كمصور بمؤسسة لوميير حيث حمل كاميرته عام 1905 وصور لنا الجزائر قائلا:الجزائر..تحت شمس منتصف النهار..المسجد..بيوت العرب البسيطة..إنني أصور شبابي وديكوره"[1].ويوجد في وثائق Catalogue de vues للأخوين –لوميير–عام1897 ما يقارب350 فيلما وثائقيا مسجلا بفرنسا لبلدان كثيرة وعشرات منها تخص الجزائر وخاصة مدينتي الجزائر العاصمة وتلمسان.ومن بين هذه الأفلام نجد:

N 197 prière du muezzin.-

-N199 marche' arabe.

-N200 place du gouvernement

كما نجد غير هذا كثير مما صور بمدينة وهران عام1896.وهكذا فقد عرفت السينما طريقها بالجزائر بدءا من 1899 وفتحت دور السينما عام 1908 بالعاصمة ثم بوهران وانتقلت إلى قسنطينة وغيرها من المدن.وفي عام 1933 عمت السينما كل الجزائر، وكانت تلك الأفلام تدور حول موضوعات عديدة منها:

– أفلام وثائقية حول الجزائر، قسنطينة.

–أفلام إخبارية حول المسلمين.

–أفلام وثائقية حول فرنسا ودول أخرى..."[2].

وفي هذه الفترة استقطبت الجزائر بجمال مناظرها وطبيعتها الشاعرية الكثير من المخرجين،فاختاروها لتصوير أفلامهم.ومن هؤلاء نجد جاك فيدر وجان رينوار.

السينما الجزائرية بعد الاستقلال:

كان الإنتاج الجزائري من الأفلام بين1965و1978، 198فيلما منها 40فيلما طويلا و133 فيلما قصيرا و25 فيلما مشتركا.ونتيجة لهذا الضعف لم يكن هناك سوى باب الاستيراد، وقد كان عدد الأفلام المستوردة 331 فيلما عام 1982 أي أكثر من إنتاج الجزائر طيلة 21 سنة[3].وقد بلغ عدد الأفلام الجزائرية المنتجة بين سنتي 1964-1974، 24 فيلما تميز أغلبها بتصوير حرب التحرير وأهم هذه الأفلام:الليل يخاف من الشمس عام 1965، ريح الأوراس عام1966، الخارجون عن القانون عام 1969، الأفيون والعصا عام1970،دورية نحو الشرق عام1974وغيرها.كما كان اهتمام المخرجين بالروايات الأدبية وخاصة منها أعمال الروائي –محمد ديب- و-مولود معمري-، إضافة إلى الأعمال المشتركة بعد الاستقلال والتي مثلت انطلاقة السينما الجزائرية ومن هذه الأفلام:-معركة الجزائر- عام1965 للمخرج الايطالي –جيلو بونتكورفو- عن قصة لياسف سعدي، وفيلم –الغريب- للمخرج الايطالي أيضا-لوسيانو فيسكونتي-عام 1968 ،وفيلم- سنعود- للمخرج الجزائري- محمد سليم رياض- عن سيناريو- اينبا فرانكوس- ،وفيلم –العصفور- للمخرج المصري -يوسف شاهين-.

الأفيون والعصا: العلاقة بين الرواية والفيلم:

يُشكل الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية رصيدا هاما من الأدب الجزائري ككل، فقد عبر هذا الأدب رغم لغته الفرنسية عن آلام الشعب الجزائري وواقعه المر.

ومن هؤلاء الكتاب الذين ارتبطوا في كتاباتهم بثورة الشعب الجزائري وصوروا مآسيه خلال فترة الاستعمار، نجد الكاتب-مولود معمري- المولود بمنطقة القبائل.

يُعتبر الروائي-مولود معمري- من الروائيين الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية وخلفوا العديد من الأعمال الأدبية التي نالت شهرة كبيرة.ولعل أهم هذه الأعمال رواياته التي طرحت واقع الشعب الجزائري وخاصة في منطقة القبائل.ولقد اتسمت أعماله بالتوازي مع الواقع السياسي للجزائر.فبدءا بروايته-La Coline oubliée –أو الهضبة المنسية-والتي تتطرق إلى الوضع الجزائري إبان الاستعمار،إنها مأساة شعب وآلامه وبؤسه،إلى روايته الثانية –سبات العادل-ووصولا إلى – L’opium et le bâton -أو-الأفيون والعصا-والتي ركزت على حرب التحرير بكل ما تحمل من رعب وصداقة وعداوة.هذه الرواية التي يقول عنها صاحبها:"...حتى تمكنت من كتابة رواية مثل الأفيون والعصا كنت شخصا بحاجة إلى انتظار فترة من الزمن.."[4].هذه هي مأساة الشعب الجزائري برؤية كاتب لم يشارك في الحرب وإنما كان مجرد مراقب للواقع.و-معمري- كاتب بارع ومتمكن من الأسلوب الفني، يبني رواياته على فلسفة تشكل عنصر الوحدة في الرواية أكثر من بنائها على الشخصية الرئيسية.

النص الروائي الأفيون والعصا:

-الأفيون والعصا-قصة حرب ممتعة،مقسمة إلى عدة فصول،ينتهي كل فصل بمشهد يشوق القارئ.ومنطلق هذه الرواية ،حرب التحرير حيث اهتمت بالجانب القتالي لها إضافة إلى نتائجها المعنوية على الطرفين الفرنسي والجزائري. لقد كان للرواية الجزائرية حضورا كبيرا أثناء الفترة الاستعمارية وكانت من أهم الأجناس الأدبية انتشارا وذيوعا، فقد وجد فيها الأديب الجزائري الشكل التعبيري المعبر عن آلام شعبه وطموحه.ومنه فقد تمحورت موضوعات هذه الروايات حول الشعب الجزائري بمختلف فئاته اذ نجد فيها"الجندي المقاتل في المعركة، والطفل البائس المتشرد،والسجن والوطن والموت والتعذيب، والفقر والجوع والحرمان وكل ما يتصل بالسياسة الاستعمارية أو حرب الابادة التي شنتها فرنسا على الجزائريين، كذلك نجدها تصور لنا وقائع الثورة وأمجاد أبنائها وبطولاتهم المتواصلة.."[5].فالكتابة باللغة الفرنسية في تلك المرحلة كما عبر عنها الروائي مولود معمري كانت " بمنزلة المقامرة، وأن عدد من يرتكب مثل هذه الحماقة كان قليلا"[6].

ومركز الصراع بين الفئتين في الرواية،هو قرية صغيرة تدعى-تالةTala –فقد وقف أهل القرية بين قانون المجاهدين والذين يأملون من أهل القرية كل المساعدة، وبين العدو الذي يهددهم بالموت إذا اتصلوا بالمجاهدين أو كما كان يسميهم –الإرهابيونFellaghas – وقد اختار أهل القرية الالتزام بالجانب الأول(الواجب الوطني)رغم الخطر.لقد كان مطلوب منهم أن يكونوا"..بدون لون ولا رائحة، ولا أفكار ولا تفضيل، وبدون كراهية أو حب، عديمي التأثر بأي شيء إلا الخوف"[7].

تحليل الرواية:

1–دلالة العنوان:

يعتبر العنوان أول وحدة مكونة للعمل الابداعي فهو أول ما يجذبنا ويدفعنا الاختيار العمل.والعنوان يحمل دلالة جمالية انطلاقا من العلاقة التي تربطه بما يرد في النص ككل.ورواية الأفيون والعصا تحمل الكثير من الدلالة انطلاقا من عنوانها الذي يتألف من كلمتين متضادتين: الأفيون/العصا.لقد اجتمعت كلمة الأفيون التي تحمل بمفهوم ما معنى التخدير والعصا التي تحمل معنى القوة والشدة.فيقول الكاتب:" جرب معنا الفرنسيون في البدء التضليل..ولإقناعنا استعملوا كل مفاتنهم..وفي كتبهم علمونا..جان دارك، نابليون..انهم لم يتمكنوا من جذب أنظارنا الهاربة..لا يرون إلا بريق الكراهية..واعتقدوا بأننا جاحدون..ولم يتبق لهم إلا استعمال الطريقة الأخرى..منذ ثلاث سنوات نحن نُبحث، نُسجن،نُضرب، نُعذب..نُقتل بمختلف الطرق لكي نرضخ،للعقل أو القوة، نُفتن..الأفيون أو العصا.."[8].فهذه السياسة التي انتهجتها فرنسا مع الشعب الجزائري،كانت في البدء سياسة ترغيب وحين تمسك هذا الشعب برغبته في التحرر تغيرت سياستها الى الترهيب.

2–دلالة الزمن:

يلعب الزمن في الرواية دورا هاما لا بكونه مجرد خط لتطور الأحداث ولكن بكونه عنصرا فنيا أساسيا في بنية النص الأدبي.الزمن الظاهر في الرواية هو زمن الاحتلال الفرنسي للجزائر، لكنه أيضا زمن يرتبط ارتباطا كليا بشخصيات الرواية وخاصة منها الشخصية المحورية والمتمثلة

في الطبيب بشير لزرق، الشخصية المثقفة والواعية وهي الشخصية التي يخشاها المستعمر من أن تذيع الوعي في نفوس المواطنين الذين يسيطر عليهم الجهل الذي تكرسه بكل الوسائل، فالطبيب بشير عاد من الخارج الى وطنه واستقر بالجزائر العاصمة وتعتبر هذه مرحلة زمنية من حياته لكن تبدأ مرحلة مختلفة حين يطلب منه الثوار الالتحاق بالثورة ومساندتهم.كما أن شخصية الطيب الذي كان واحدا من المواطنين في المرحلة الأولى لكنه يتحول الى مساند للفرنسيين في مرحلة زمنية أخرى.اضافة الى شخصية الجندي الفرنسي George Chandier الذي كانت المرحلة الأولى من حياته رؤيته للثوار والمتمثلة في تخيلهم بشر مختلفون والمرحلة الثانية حين قربه منهم بعد فراره مع علي اليهم.

3–دلالة المكان:

كان للمكان في هذه الرواية حضور كبير من خلال ارتباطه بزمن الأحداث ،ومن خلال تتبع خط سير الشخصيات.فالروائي بتمكنه استطاع من خلال السرد أن ينقل القارئ من الزمن الحاضر ليعود به زمن ماض مصورا بالموازاة الأمكنة العديدة التي جرت بها الأحداث.فمن قرية تالة مركز الأحداث الى العاصمة الجزائر الى المغرب الى فرنسا التي يأتي حضورها نظريا.

فالطبيب بشير لزرق يعود من فرنسا ويعيش بحي راق بالعاصمة الجزائر ويعيش في مستوى معيشي جيد لكنه بطلب من الثوار يقرر الالتحاق بالثوار من خلال عودته الى قريته تالة التي كان بعيدا عنها جغرافيا لفترة طويلة.ومنه تنتقل الأحداث الى تلك القرية بمنطقة القبائل والتي يذيق المستعمر شتى أنواع التعذيب لسكانها فيقررون الثورة .لا تقف الأحداث بتالة لكنها تنتقل الى مكان آخر هو مدينة وجدة بالمغرب حين يسافر اليها الطبيب بشير.

4–الشخصيات:

تقوم هذه الرواية على مجموعة كبيرة من الشخصيات تتباين في العمر والمستوى الثقافي والاجتماعي.وإذا كانت هذه الشخصيات تقف في خطين متوازيين:جبهة تشكل المواطنين بما فيهم بشير وعلي وعمر والمستعمرون بما فيهم حاكم القرية والجنود والجندي الذي هرب مع علي.

فالمواطنون هم الجزء الأساسي في الرواية حيث أنهم محرك الأحداث رغم اختلافهم وخلافاتهم.بشير المثقف وأخوه علي الذي التحق بالثورة منذ صباه وعمر زوج أخته الذي يرافقه .تاسعديت المرأة الأرملة التي يعجب بها علي .هؤلاء هم الشخصيات الايجابية في الرواية ، بينما الشخصيات المعاكسة لها فتتمثل في شخصيات كالطيب الخائن الذي عانى من المعاملة السيئة لأهل القرية له فقرر الانتقام منهم بأن يكون عميلا لفرنسا.اضافة الى بلعيد الشخصية السكيرة الذي دفعه فقره وجهله للسكر لكنه استغل سكره ليأخذ معلومات من المستعمر ونقلها للمجاهدين.

أما الفئة الثانية فتتمثل في الشخصيات الاستعمارية يأتي على رأسها الملازمLieutenant Delecluse الذي كان يمارس سلطته على أهل القرية وكان متخوفا من وجود أشخاص مثقفين يسهمون في توعية المواطنين.وقد حاول منع الطبيب بشير من زيارة قريته.كما نجد الملازم الأولGraine de violence هذا الملازم الذي كان "يتمتع برؤية المستنطقين يتعذبون بشتى أنواع العذاب، بحيث يترقب اعترافاتهم ويتحدى عنادهم وصمودهم الكبير"4.لقد كان عنيفا في علاقته بالمواطنين، هذه الصورة تقابلها صورة الجندي George

Chandier الذي أعطى صورة انسانية عن الجندي الفرنسي الذي يقرر الهرب رفقة علي والذي اكتشف بعد أن ألقى رفاقه بعمر من المروحية على ارتفاع حد السماء أن (الفلاقة) و–هو اسم المجاهدين –"بشر مثل كل البشر"[9].فيتأكد شعوره الانساني حين " فوجئ بهما يرميان به من أعلى ارتفاع في السماء ليقع أمامهما أشلاء فأدار رأسه ولم يستطع النظر للجثة ولا لأسيره علي"[10].فهذا الجندي صحا فيه الجانب الانساني فقرر أن يفك وثاق علي ويتركه يهرب، وحين أدرك أنه لا دور له في هذه الحرب قرر مرافقته.وحتى حين عرض على علي علبة الأكل ورفض علي أكلها خوفا من احتوائها على لحم حرام أكد له أنها ليست من لحم خنزير ورغم ذلك اصر علي على عدم الأكل فتخلص الجندي من العلبة رغم جوعه الشديد،فهذا الجانب الانساني الجميل كان من بين المظاهر الواردة في الرواية من خلال شخصياتها. كما نجد شخصية نسائية مستوطنة أيضا لكنها مثلت جانبا مشرقا متمثلة في شخصية كلود وهي صديقة الطبيب بشير والتي تحمل طفله والتي قدمت معه الى الجزائر وكانت رافضة للظلم الذي تمارسه السلطات الفرنسية على الجزائريين.

ان شخصيات الرواية أناس عاديون، يتصرفون بإرادة ولكن بعد تردد.فالدكتور–بشير الأزرق–كان يعيش حالة مريحة ولكنه بعد تردد وحوار مع الذات يقرر الالتحاق بالثورة،كما أن–طيب–الذي قرر الخيانة من أجل مركز هام في القرية عاش ذليلا لفترة إذ يقول:" أما أنا فقد كنت طول حياتي تدوسني الأقدام..وكنت أقول شكرا بعد هذا"[11].وقد وجد فرصة للانتقام من قريته وحينما أصدرت السلطات الفرنسية أمرا بقطع أشجار الزيتون الموجودة بالقرية، قال–طيب–متشفيا:"..كنتم في السابق فخورين بما تملكون من أشجار الزيتون، وكنت تحتقرونني لأنني لا أملك شيئا.كنتم تبيعونني زيتكم بسعر مرتفع يا سفلاء وخلال أشهر عديدة أكلت الكسكسى بدون زيت لأنني لم أكن أملك المال الكافي لشراء الزيت والىن جاء دوركم لتموتوا من الجوع"[12].فالحرب تدفع الإنسان إلى أقصى إمكاناته سواء في الشجاعة أو القسوة فتقترب تصرفاته أحيانا من الخيال.وفي–الأفيون والعصا–هناك مشهدان مرعبان..يتعلق الأول بشخصية–آكلي– الثوري الذي يصاب في ذراعه بإحدى القنابل فيقتطعه بنفسه ويرميه بعيدا.ويتعلق الثاني بالسجين–عمر–الذي عذبه العدو أشد تعذيب من أجل إفشاء سر المجاهدين، ثم يرمى من طائرة عمودية من ارتفاع شاهق.وقد علق الكاتب على هذه الأحداث القاسية بقوله:"لقد أعطى الرجال خلال هذه الحرب أقصى ما في قدرة الإنسان أن يعطي، وتلك الحادثة في الكتاب خطوة إلى أقصى حدود الألم.فقد وصفت هنا الشجاعة الريفية للمجاهدين بدون كلام منمق"[13]..ولقد صور الكاتب حادثة اعتقال–عمر–و–علي–بإنهائها كمايلي:"أخرج علي من مخبئه وربطت يديه خلف ظهره وأنزل إلى أسفل الوادي حيث كان عمر يشخر وقد تجمد الدم فوق صدغه.."[14].ثم يروي حادثة إصابة–آكلي–في ذراعه التي عثر عليها العدو وراح يستجوب أهل القرية عنها وبعدها يعود الكاتب ليروي مغامرة الطبيب–بشير–مع–ايتو– بالمغرب لينقل القارئ من جو الرعب إلى جو يختلف عنه تماما.

رسم إذن الكاتب حالات عديدة يمكن لحرب تحريرية كهذه الحرب أن توجدها.فشخصيتي–طيب–و–موستيك–اللذين تعاونا مع العدو وندما على هذه الخيانة،فيلتحق–موستيك–بالثورة،بينما يبقى–طيب–مع العدو بعد أن كان الأوان قد فات،وظل وحيدا بالقرية بعد قرار العدو بقصفها لعله يقدم مساعدة لأي من سكانها ويظهر ناقما على الفرنسيين حينما يشاهد المئذنة المدمرة فيقول:"..أترى يا موحان ماذا حل بأربعة قرون من صلاة آبائنا؟ مجرد غبار وحجارة.إن الأجانب لا يحبوننا أخي موحان،إنهم يحتقروننا..يحتقروننا"[15]،وهكذا فقد ندم–طيب–لأن موت القرية يعني موته.

لقد انطلقت الرواية الجزائرية من حرب التحرير واستلهمت مبادئها ومنه".. فإن الثورة الجزائرية ظلت تؤثر في الكتاب الجزائريين من الناشئة الذين عالجوا الكتابة في العهد المتأخر،بل حتى فيمن واكبوها وعايشوها فظلت تعتلج في أخيلتهم،ورسيسها يراود عواطفهم فتمدها بالخيال الدافق وتزودها بالإلهام الطافح وتوحي إليها بالإبداع والابتكار"[16].إنها النبع الذي ظل الكتاب يغرفون منه وما يزالون.

إن –الأفيون والعصا–مثلت نموذجا من الرواية الجزائرية التي تناولت الثورة الجزائرية من وجهة نظر مختلفة انطلاقا مما طرحته.إنها رواية مفعمة بالصور والأحداث المشوقة، لا تقل جمالا عن روايته –الهضبة المنسية–التي قال عنها–طه حسين–:"ما أشد إعجابي بهذا الكاتب الذي لا أنكر من أمره إلا أنه لم يكتب بالعربية،ولكن هذا عيب لا يؤخذ به الكاتب وإنما يؤخذ به الاستعمار.."[17].إن الفرنسية لم تكن حاجزا يمنع إظهار جمالية الرواية.هذه الرواية التي أظهر من خلالها الكاتب اهتمامه الدقيق بعادات الناس وتقاليدهم، مما جعل هذه الرواية تتكيف مع العمل السينمائي.

النص السينمائي الأفيون والعصا:

انتقلت رواية –الأفيون والعصا– إلى السينما على يد المخرج –أحمد راشدي–عام 1970 بالعنوان نفسه.وككل الأفلام التي أخرجت بالجزائر بعد 1962 يدخل هذا الفيلم في مجال السينما الثورية.ولعل اعتماد الروائي على كتابة نصه في مشاهد صورية واختيار الزاوية التي تبرز جمال هذه الصور، ساهم في سهولة نقل هذه الرواية إلى السينما.

يقول مخرج الفيلم عن الرواية:"إنني أجد الأفيون والعصا رواية جيدة لأنها مملوءة بعديد من الحالات والملاحم والطرائف.إنها نوع من الترحال بالطريقة التي تصور بها مختلف أوقات وحالات القصة التي أثارتني.إنني أجد هذه الرواية وأعتبرها تحية حارة إلى الثورة الجزائرية..وأحداثا تبكي الجزائر المضطهدة .وهذه القصة هي أيضا سيل من الكلمات والآهات وصيحات الفرح والكراهية.مشاهد النار والدم التي مزقت بلادنا مدة ثماني سنوات.إن الذي همني أكثر هو المظهر البصري.."[18].وهكذا فقد تحولت –الأفيون والعصا–إلى السينما ومثلت كالعديد من الأفلام جانبا من تاريخ الجزائر.

إن الرواية وقبل تحولها إلى فيلم يعتمد الصورة كعنصر أول تظل تنتمي" إلى فن الأدب طبعا.ومنه فهي عمل بشكل ومضمون وليست مادة فارغة تنقصها المقومات الداخلية والخارجية، إنها مضمون وشكل ودور المخرج هو إعطاء الرواية شكل الإمكانية أو التحقيق الذي يكمن فيها كنص أدبي وليس دوره فقط جمع عناصر وربطها كالحرفي"[19].وهذا يحيل إلى العلاقة بين الرواية كنص يعتمد اللغة والسينما التي تقوم على الصورة،ويؤكد على رؤية المخرج فيما إذا كانت كل رواية تصلح لأن تتحول إلى فيلم.

و–أحمد راشدي– وغيره ممن اطلعوا على الرواية لم يجدوا فيها إلا نصا قابلا للأفلمة دون جهد كبير،لأنها حملت في طياتها الكثير من الصور السينمائية.وقد وظف المخرج كل طاقته لإخراج الرواية في أحسن صورة سينمائية متأثرا بالسينما الأمريكية التي تعتمد على الحركة والكثير من الإثارة.

السرد الفيلمي:

أخرج-أحمد راشدي-إذن فيلمه-الأفيون والعصا- بالعنوان نفسه عن رواية الكاتب-مولود معمري-.

يتتبع الفيلم قصة مجموعة من السكان في قرية صغيرة تدعى-طالة-ببلاد القبائل بالجزائر، حيث العادات والتقاليد البسيطة وحيث سلطة الاستعمار التي تحاول إرغام السكان على مقاطعة الثورة من حيث إمداد المجاهدين بما يحتاجونه.

ومن خلال القرية تبرز مجموعة من الشخصيات التي تتصارع وتصارع لأجل بقائها.فيبرز الثوري-علي لابوانت- بشجاعته الكبيرة،ويبرز-عمر- والطبيب-بشير-الذي يلتحق بالثورة ويتخلى عن مكانته.إضافة لآكلي الذي يبرز شجاعة لا مثيل لها.كما يبرز وجه الخيانة ممثلا في -بلعيد- الذي يعمل على الجبهتين،فهو مناضل مع الثوار ولكنه يظهر وجه الخائن مع فرنسا،و-طيب- الذي يبقى على خيانته ولكنه يندم في النهاية حين يكتشف كره الأجانب لسكان البلاد بعد أن يرى المئذنة مدمرة حين أبادت سلطات الاستعمار القرية.

وهكذا كانت البطولة في حد ذاتها بطلا من أبطال الفيلم، انطلاقا من الصور التي أبرزت هذا الكفاح الكبير للشعب الجزائري.

اعتمد المخرج في سرده السينمائي على عدة طرق ساعدته في نقل الصورة إلى المشاهد بكل ما تحمل من دلالات وجمالية عالية.ومن هذه الطرق نجد الوصف والحوار،دون إهمال العودة إلى الوراء وكلها عناصر سردية خدمت المشهد الفيلمي.

الوصف:

لعب الوصف دورا كبيرا في الفيلم من حيث أنه قدم الفضاء الذي تجري به الأحداث، وتتحرك فيه الشخصيات كلها.وقد أُستُهل السرد بعرض فضاء القرية التي تعتبر أول فضاء، فيظهر أهل القرية كل في عمله وفي مكانه، فهذا في دكانه وذاك في حقله والثوار في مخبأهم بالجبل والمستعمرون في معسكراتهم.تظهر تلك الفضاءات بجمالية كبيرة من حيث قدرة المخرج على التقاط زوايا التصوير التي تبرز الحدث كما لو أنه لوحة حقيقية،وهنا يقول الممثل-سيد علي كويرات-الذي قام بدور-علي لابوانت-في الفيلم عن مخرج الفيلم:"..أضاف المخرج أحمد راشدي للنص بصماته..لأن الممثل وحده لا يمكنه أن يفعل شيئا لو كان يعمل على نص لا إحساس فيه ومع فريق لا يساعده على الإبداع بقدر ما يكسر جهوده"[20]. يجري السرد السينمائي في الزمن الحاضر وتتخلله عودة إلى الوراء لتذكر بعض الأحداث، ومن ذلك تذكر الطبيب-بشير-لمغامرته مع-ايتو-في المغرب.

الحوار:

يشكل الحوار عنصرا هاما من عناصر الفيلم، وقد جاء في فيلم-الأفيون والعصا-معبرا عن عوالم الشخصيات، كاشفا عن معاناتها وخاصة تجاه المستعمر.

كان الحوار وخاصة منه الحوار الخارجي بين الشخصيات كاشفا عما يدور في أعماق الشخصية، ومن ذلك الحوار الجميل بين-علي- المعتقل من طرف المستعمر والجندي-جورج- الذي يحرسه ويتعاطف معه ويقرر إطلاق سراحه ويطلب منه أن يأخذه معه.وفي طريق هربهما بعد أن فك وثاقه وركضا معا وتوقفهما للاستراحة يعرض-جورج-طعامه على-علي-فيرفض هذا الأخير لأنه لا يأكل لحم خنزير

فهو حرام.يخبره–جورج–بأنه لحم عجل ويريه العلبة وما هو مكتوب عليها فيصر—علي–على الرفض وحينها يرمي–جورج– العلبة ولا يتناولها وكان ذلك من قمة المشاهد الإنسانية .وبوصولهما يقدم لهم الثوار بالجبل اللبن والخبز الجزائري فيأكل —جورج– ويعامل بإنسانية أيضا.وحوار–بشير–مع ذاك الرجل الذي يحمل كلمة السر والذي قام بدوره–حسن الحسني– وحوار الرجل مع جنود الاستعمار حين قدموا للبحث عن الطبيب ولكنه يوهمهما بأنه لم ير أحدا بعد أن يكون قد أخفى الطبيب.كما لعب الحوار الداخلي الذي تردده الشخصية ولو في صمت، كحوار–بشير–الصامت مع نفسه في تردده وقراره الالتحاق بالثورة.إضافة إلى الاجتماع الذي يجمع أهل القرية ب–مونين–فقد كان الصمت أشبه بحوار يتكلم يدور في أعماقهم دون أن ينبسوا بكلمة واحدة، لقد كان حوار"يبرهن على استيائهم وقلقهم وخوفهم.."[21].هكذا قدم المخرج شخصياته متصارعة مع العدو، ومعانية للخوف في أعماقها، ورافضة للذل في ظاهرها مقدمة صورا بطولية لا مثيل لها.

اللقطات:

قدم المخرج أحداث فيلمه في مجموعة من اللقطات التي تراوحت بين اللقطات البعيدة والقريبة والمتوسطة تبعا لأهمية الحدث وإبراز مدى تأثيره.إن الذي قدمه الفيلم هو وطنية شعب واحتوى مشاهد حربية تتعلق بالكثير من الشخصيات خاصة —علي لابوانت–و–عمر– .ولعل أجمل اللحظات تلك المتعلقة بلقطات قريبة لعلي حين أمسك به المستعمر وجاء به لإعدامه في القرية،فيظهر في لقطة قريبة وهو يبتسم بينما يداه مكبلتان ويرمى في لقطة متوسطة بالرصاص بينما تركض أخته —فروجة–في نفس اللقطة نحوه صارخة–علي–علي–.ولقطة قريبة لوجوه النسوة وبكائهن ثم وهن يزغردن بعد إعدام —علي–وهي من أجمل مشاهد العمق الثوري في الفيلم.وهناك لقطات قريبة عديدة منها لقطة للأخت–فروجة–مع والدتها أمام الجندي الاستعماري.كما كانت هناك لقطات قريبة تبين ملامح الشخصيات جيدا كاللقطات التي أبرزت ملامح–علي–حين قدم له–جورج–الطعام فيظهر تقلص عضلات وجهه دلالة على رفضه الأكل خوفا من أن يكون لحم خنزير ولقطة قريبة ليد–جورج–تحمل العلبة ويصرخ في وجه–علي–بأنه ليس لحم خنزير بل عجل.وهنا يقول الممثل–سيد علي كويرات– :"في العصا والأفيون لا يمكنني إلا أن أبدع في دوري،لأن نص مولود معمري نفسه يدفعك للإبداع فقد كان فنانا وهو يقدر أحاسيسه عن معاناة شعبه وألوان اضطهاده وحرمانه.وبالتالي شعرت بقيمة ما يقدمه كنص فجسدته في الفيلم"[22]. إضافة إلى لقطات قريبة أخرى كتلك التي بينت ملامح–بشير– بعد عودته إلى قريته وتردده في الالتحاق بالثورة ،فيظهر في عدة لقطات متوسطة أيضا رفقة أخته–فروجة– بالبيت وهي تقدم له الطعام.إن المخرج وبفنية كبيرة لم يبتعد عن تقديم مشاهد فيلمه في صور بسيطة،سواء التي تعلقت بمشاهد الحرب أو غيرها"انه يمر بالواسترن إلى الميلودراما.أحمد راشدي لا يعرف إلا كيف يحكي"[23].إن فيلم–الأفيون والعصا–فيلم مميز بكل عناصره السينمائية التي أبدع فيها المخرج وفريق عمله.

الرواية والفيلم: الاختلاف بينهما:

تحولت إذن رواية–الأفيون والعصا–لمولود معمري إلى فيلم بذات العنوان على يد المخرج —أحمد راشدي–الذي أبدع في تقديم أجمل صور الحرب التحريرية عن طريق الصورة السينمائية.

وإذا كانت الرواية فن منفصل عن السينما،فإن المخرج الفذ هو الذي يستطيع تطويع العمل الأدبي إلى السينما دون أن يقضي على روحه.و–أحمد راشدي– التزم بكل ما ورد في الرواية تقريبا ،موظفا كل العناصر السينمائية لتحويل المشاهد اللغوية إلى صور تتحرك.وقد ساعده في ذلك النص الروائي في حد ذاته الذي كتبه صاحبه كما لو أنه يكتب فيلما.

وبعد مرور سبعة عشرة سنة على تحويل الرواية إلى فيلم يقول كاتبها–مولود معمري– عن هذا التحويل:"التحويل إلى الشاشة مشكلة عامة ليس فقط بالنسبة للأفيون والعصا وذلك لأنها قضية لغتين مختلفتين:لغة أدبية ترتكز على الكلمات،ولغة سينمائية ترتكز على الصورة.طبعا هناك حوار في السينما ولكن قد لا يكون ذلك هو الأهم"[24].ويضيف الكاتب أنه لا يمكن توقع تحويل دقيق للنص(الرواية)فالأشياء تقال مختلفة بالنسبة للفيلم.ويؤكد فيما إذا كان الفيلم يظل وفيا للنص الروائي فيقول:"..في رأيي،الفيلم عموما محدد بوقت على الشاشة.لقد قرأت وشاهدت الحرب والسلام،لا يمكن أن نؤكد أنه بين الرواية والفيلم مسافة فالحرب والسلام كتاب ذا حجم كبير بينما الفيلم عليه أن يحمل محتوى رواية طويلة في ساعتين"[25].ومنه فالكاتب كان يعرف مدى الاختلاف بين الرواية والفيلم وأن المخرج لا يستطيع في النهاية أن يلتزم التزاما مطلقا بما ورد في الرواية،لأنه ساعتها لن يقدم فنا سينمائيا جيدا.

حظيت روايتين لمولود معمري بالاقتباس الى السينما،أولاهما الأفيون والعصا عام 1969 على يد المخرج أحمد راشدي، وثانيهما الربوة المنسية La colline oubliée على يد عبد الرحمن بوقرموح عام 1991.وبالنسبة للأفيون والعصا فقد كتب له السيناريو المخرج أحمد راشدي الذي حاول أن يلتزم بالنص مع أفلمة المشاهد الممكنة من الرواية وقد كان أمينا في ذلك الى حد كبير.أحمد راشدي الذي هو مقتنع بأن الجمهور هو الحكم الوحيد على نجاح أي عمل سينمائي، وارتياده لقاعات السينما لمشاهدة فيلم ما هو إلا دليل قاطع على نجاح الفيلم فالجمهور هو المقياس الوحيد الذي يعتد به.ولكن أحمد راشدي يؤمن أيضا بضرورة التعامل مع النص السينمائي بشكل يختلف عن النص الروائي وأن المخرج قد يضحي بالكثير من أجزاء الرواية ليضمن تقديم عمل سينمائي ناجح فهو يؤمن بأنه للوصول الى الجمهور يجب قص حكاية على الشخصيات، اذ أن الفيلم يحمل العديد من الأفكار،ولكي يتقبلها المشاهد يجب توظيف شخصيات قد تتطابق ذات هذه الشخصيات معها.وربما هذا ما جعل المخرج يبحث في الرواية عن الأحداث والشخصيات التي تتلاءم مع شخصيات المجتمع الجزائري الذي يرتاد قاعة السينما وينسج من خلالها فيلمه الذي حقق شهرة كبيرة له ولكاتبه ، انطلاقا من صنعه لعالم بطولي لرجال الثورة التحريرية الجزائرية.

فيلم الأفيون والعصا من النماذج الرائدة في السينما الجزائرية التي تعاملت مع النصوص الأدبية وهو تعاون فني جميل بين المخرج راشدي والكاتب مولود معمري.ولكن تكمن الصعوبة لدى المخرج وهو كاتب السيناريو أيضا في صعوبة تحويل المشاهد المكتوبة الى صور متحركة تحمل من المعاني والإيحاءات الكثير، اضافة الى أن كاتب السيناريو قد اضطر الى ترجمة هذه المشاهد من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية ومن اللغة العربية الى اللهجة الجزائرية الدارجة حتى يتسنى لكل فئات المجتمع الجزائري في فهمها.ورغم أن الأجواء التي تجري فيها الرواية أجواء مجتمع قبائلي إلا أن الفيلم جاء بلهجة واضحة وتمكن بفنية عالية من الوصول الى كل المجتمع الجزائري من خلال نقل صور بطولية جميلة لأبطال الثورة التحريرية.

ومن الاختلافات بين الرواية والفيلم مايلي:

1-نشير الى أن المخرج قد انتقى المقاطع الروائية التي استطاع تحويلها الى مشاهد فيلمية وهناك الكثير منها لم يتمكن من نقله الى لغة السينما.

2-اهمال المخرج لعلاقة الطبيب بشير لزرق الشخصية المحورية في الرواية مع صديقته الفرنسية كلود التي كانت تنتظر طفله و التي كانت رافضة لسياسة فرنسا في الجزائر.وتركيزه على الفعل البطولي الجماعي للشعب الجزائري دون حصره في شخصة الطبيب.

3-اهماله لزيارة الطبيب بشير لزرق الى المغرب بعد دعوته من القائد عميروش للالتحاق بالثورة في الخارج، هذه الزيارة التي يمر فيها الطبيب ببيته بالعاصمة قادما من قريته تالة لزيارة صديقته حيث يلقى عليه القبض ويسجن ليتعايش مع حالات كثيرة للسجناء الجزائريين ويتمكن من اقناع السلطات الاستعمارية التي تبرئه.

4-اهمال المخرج أيضا للحديث عن الفتاة المغربية ايتو التي تعرف عليها الطبيب بشير أثناء زيارته للمغرب.هذه الفتاة القروية التي كانت رافضة للزواج من الرجل الذي اختارته لها عائلتها فتهرب مع الطبيب وبعد فترة تعود الى بيتها لتتزوج ذاك الرجل.فعودت الطبيب الى الجزائر ويمر ببيته بالعاصمة حيث يفاجأ بمغادرة كلود الجزائر الى بلدها فرنسا.

5- لم يغير المخرج الملازم ديلكيلوز الذي كان شديد البطش بأهل القرية كما جاء في الرواية التي يخلف فيها الملازم ديلكيلوز و الملازم مارسيلاك.

6-عدم تركيز المخرج على العنصر النسائي في الفيلم رغم وروده في الرواية وخاصة المشاهد الرومانسية وهذا كما يبدو قد لا يتماشى مع ثقافة المجتمع الجزائري المحافظ.فالشخصية النسائية التي كان لها حضور في الفيلم هي شخصية فروجة وهي زوجة عمر الذي ألقت به السلطات من المروحية وأخت الطبيب بشير وعلي وبلعيد والتي تظهر في مشهد مبك هي ونساء القرية بعد مقتل علي وإحضاره الى قريته تالة.

ما يمكن قوله عن فيلم الأفيون والعصا فيلم ناجح سينمائيا وقد حافظ على الخطوط الأساسية في الرواية ولم يفرغها من محتواها، بل يمكن القول ان الفيلم قد نجح في رسم شخوص الرواية وساهم في نقل جزء من الصورة البطولية الواردة في الرواية والتي بلا شك أن الكاتب كان يرغب في ابرازها.

وهكذا ظل فيلم-الأفيون والعصا-لأحمد راشدي ،من أجمل الأفلام التي كان فيها التعاون بين الأدب والسينما وظل فيلما شهد له الكثير من النقاد بالجودة والمتعة فهذا-في أنبال- يقول عنه:"الأفيون والعصا،له طابع جميع مظاهر السينما الهوليودية.فلقد حاول المؤلف-في جهد-استخلاص كل ما من شأنه أن يمس نوع الأفلام الأمريكية ذات الحركات الكثيرة بوليسيا كان أو حربيا.لقد حاول جلب أكبر عدد ممكن من الجمهور، ونجح في هذا نجاحا ملحوظا حيث شاهده ما يزيد عن مليون شخص في وقت قصير.."[26].إن –الأفيون والعصا- بجماليته السينمائية مثل السينما الجزائرية أحسن تمثيل.

ومن هنا فإن-الأفيون والعصا- رواية وفيلما ظلت من أهم الأعمال التي عبرت عن حرب التحرير الجزائرية، ومن الأفلام التي شدت أكبر جمهور.كما ظل هذا الفيلم نموذجا للتعاون بين الأدب والسينما.

الهوامش والمصادر:

1-Magribi, Abdelghani. Les Algériens au miroir du cinéma colonial. sned.1982.p14.
2-المرجع نفسه.ص16.
3-بوكروح،مخلوف،المسرح الجزائري،.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر،ص13.
4-أديب بامية،عايدة،تطور الأدب القصصي الجزائري1967/1925.ت/محمد صقر.ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر1982،ص139.
1-Rabah Soukel Le roman algérien de langue française(1950-1990)-thématique**,** édition publisud, Paris, 2003, P23.
6-أديب بامية، عايدة، المرجع السابق، ص59.
7-المرجع نفسه.ص166.
8-Mouloud MAMMERI : l'opium et le bâton (Roman), édition la découverte, édition, Paris, 1992, P12- 13.
9-الأفيون والعصا، ص79.
10-الأفيون والعصا، ص24.
11-الأفيون والعصا، ص25.
12-أديب بامية،عايدة،المرجع السابق،ص167.
13-المرجع نفسه،ص168.
14-المرجع نفسه،ص267.
15-المرجع نفسه،ص169.
16-مرتاض،عبد الملك،القصة الجزائرية المعاصرة.المؤسسة الوطنية للكتاب.الجزائر1990.ص41.
17-صبيات، نصيرة،التجربة السينمائية عند مولود معمري،انفرادية في دقة التصوير وعالمية في أسلوب الأداء،جريدة الخبر.الجزائر.عدد2794،ص19.
18-الإنتاج السينمائي الجزائري،المرجع السابق،ص35.حوار مع أحمد راشدي 1973.
19-سرور، نجيب،هموم الأدب والفن،دار المريخ للنشر،بدون طبعة أو سنة،ص14.
20-كويرات،سيد علي كويرات،مسرحنا يحكمه من لا علاقة لهم بالفن،حوار معه،جريدة الخبر، ع2811.ص21.
21-أديب بامية، عايدة،المرجع السابق،ص267.

22-كويرات،سيد علي ،مسرحنا يحكمه من لا علاقة لهم بالفن،الخبر،ص21.

23-Jean De Baronnecelli.Le monde. Littérature .n/23/9/1977.

24-حسان الحاج، عبد الرحمان،من الكتابة إلى الشاشة،جريدة K L'opinion صفحة.سينما.

25-المرجع نفسه،صفحة سينما.

26-الإنتاج السينمائي الجزائري،المرجع السابق،ص35.